الْمُغَايَرَةُ السِّيَاقِيَةُ فِي آيَتَي الْغَدِيرِ

دِرَاسَةٌ فِي ضَوْءِ إِعْلَامِيَّةِ كَسْرِ التَّوَقُّعِ النَّصِّيِّ

أ. م. د. زهراء جياد عباس البرقعاوي

الجامعة الإسلامية / النجف الأشرف

The Contextual Variation in the Two Verses of Al-Ghadeer
A Study through breaking the horizon of expectations

Assistant Professor Dr. Zahraa Jeyad Abbas Alborqoa'awi
Islamic University/Holy al-Najaf city
zahra_abbas39@yahoo.com

الملخص

لما كان الخطاب في النص القرآني يهدف إلى الإقناع والتأثير وكان المتلقي يشغل موقعا وسطا بين التأويل والبيان بوصفهما انعكاسا لعملية التواصل ومثالا للتواصل، فإنّه في لحظة ما قد ينتقل النص من سياق معين إلى سياق آخر لتنبيه المتلقي ولفت نظره إلى أهمية السياق الذي انتقل إليه النص بصورة مفاجئة، وبذلك يكون (غير المتوقع) هو المسؤول عن المفاجأة، التي تساعد المتلقي على التواصل مع النص، والحرص على استبصار مكوناته، لأن كسر التوقع إنما جاء نتيجة للطارئ المبتدع، وليس للعادي المألوف (المتوقع من النفس).

إذ إن أهمية النص لا تنبع من كونه نصا إخباريا ينقل إلينا كمّا من المعلومات، وإنما مَهمّة النص أن يجعلنا نتفاعل معه، ونستلهم منه أشياء جديدة، تكسر توقعنا فثمة علاقة عكسية بين التوقع من جهة وبين المفاجأة التي يحدثها ما هو غير متوقع من جهة أخرى، فإذا زادت نسبة التوقع قلت نسبة المفاجأة.

وتعتمد عملية التواصل والتأثير ما بين النص والمتلقي على مشاركة المتلقي، وحسن تلقيه للإشارات النصية التي تقود خطاه، ويحدث هذا عندما يرصد القارئ في بنية النص إجراءً أسلوبيا غير منتظر، أو مقابلات دلالية غير متوقعة، أو مفاجآت سياقية، أو عند تحويل اتجاه النص فجأة نحو مسار آخر ليكسر أفق توقعه،إذ يعد لأسلوب المفاجأة أو الدهشة القدرة على جذب المتلقي وتشويقه.

من هنا فإن آيتي حادثة الغدير في سورة المائدة قد وردتا في سياقين مغايرين لمضمون الآيتين والمراد منهما، وذلك للفت عناية القارئ وكسر توقعه ومفاجأته بمضمونهما المختلف عن السياق السابق واللاحق لهما لأهمية هذه الحادثة ولضرورة التنبيه عليها.

الكلمات المفتاحية:

كسر التوقع – المفاجأة – المغايرة السياقية – آيتي الغدير – دراسة نصية – إعلامية النص – آراء المفسرين في آيتي الغدير.

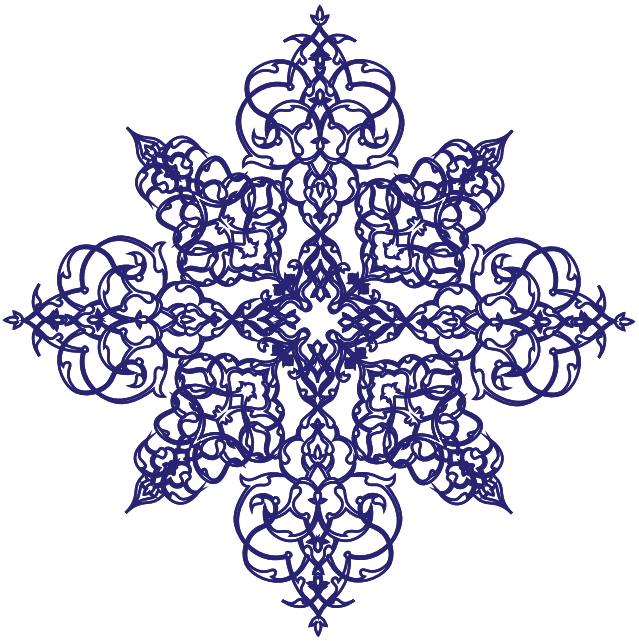

Abstract

Since the Qur'anic text aims to persuasion and influence, while the receiver has taken position the middle between Interpretation and elucidation due to rule as a reflection for the communication process and an example of communication, but at some point the text change from one context to another on purpose to alert the receiver and obtain his attention to the importance of the context which the text moved to it all of sudden, and for this reason the (unexpected) is the reason behind the sudden change, which will help the receiver to connect with the text and paying attention to the details, because breaking the expectation process was a result for the Innovative Contingency and not the regular expected) Expected from oneself(.

For sure, the importance of the text does not come being a news text bringing us amount of information, but the mission/ purpose of the text is to make us interact with it, and take inspiration for new matters from it, that break our expectation since there is an inverse relationship between the expectation and the surprise that resulted from the unexpected on the

other hand, and if the expectation ratio increase the surprise ration decrease.

Communication and influence process between the text and the receiver based on the interact of the receiver and the quality of his reception for the text signs which are enlightening him, and this happens when the reader spotting in the text body an unexpected stylistic action, unexpected acceptability of evidence, contextual surprises, or when you change the direction of the text into different course suddenly to break it's expectation horizon, because the method of surprise or astonishment has the ability to attract and intrigue the recipient.

Therefore, the two verses of Al-Ghadeer in Surat-Almaeda has been revealed in two different contexts from the content of the two verses on purpose to obtain the attention of the reader and breaking his expectations and then surprise him with their content which is different than the previous and subsequent contexts for the importance of this incident and the need to spotting the lights on it.

Keywords: break expectation - surprise, Contextual contrast - the verses of Al-Ghadeer - a textual study - the informational text - the views of the commentators on the verses of Al-Ghadeer.

يصعب الفصل بين تلقي العمل والأثر الذي يحدثه؛ لأنَّ أيَّ عمل كيفما كان يرتبط بالمتلقي من ناحيتين: تلقيه من ناحية وأثره من ناحية أُخرى، فالأثر الجمالي يقوم على جدليَّة ثلاثيَّة الأطراف هي النص، والقارئ، وتفاعلهما المشترك[١].

إذ يعدُّ التفاعل بين بنية النص والمتلقي الأساس في قراءة كلِّ عمل أدبي، إذ يجب ألَّا تقتصر دراسة العمل الأدبي على النصِّ الفعلي فحسب، وإنَّما بالدرجة نفسها يجب الاهتمام بالأفعال المرتبطة بالتجاوب مع ذلك النص[٢].

إذ إنَّ أوليَّة الاشتغال بين النصِّ والقارئ تقوم على خاصيَّة الفهم، فالعمل يحاول دائماً أنْ يوفر لقارئه المناخ الأدبي والاقتراحات التي يمكن أنْ توجّه عمليَّة الفهم لديه، حتى يصل في النهاية إلى تشكيل أو إعادة تشكيل الأُفق الأدبي الخاص بالعمل، فالقارئ يستنطق النصَّ في حدود استحضاره لفهمه المسبق لكنْ في إطار المرجعيَّات الأدبيَّة التي يعرضها النصُّ نفسه.

وتعدُّ الطريقة التي يهتم بها ضبط الحوار بين المتلقي والنصّ، من أهم جوانب نظريَّة التواصل، وتتجسد هذه الطريقة في العلاقة الجدليَّة بين التوقع واللاتوقع، فالتوقع هو (انتظار يشوبه التمني، مثل درجة النجاح التي يتمنى المرء بلوغها في عمل ما)[٣].

أمَّا اللاتوقع فهو كسر لهذا الانتظار، وخيبة تواجه عمليَّة التوقع، وأُفق الانتظار هو ذلك الافتراض الأوَّلي الذي ينطلق منه القارئ ظاناً أنَّه سيصل إليه عند إنهاء قراءته للعمل الأدبي الذي بين يديه، مستقياً إيَّاه من تجاربه الماضية[٤]، وهنا نجد أنفسنا أمام ثلاث حالات:

(١) ينظر: ظاهرة التلقي في الأدب، محمَّد علي الكردي، مجلة علامات في النقد، المجلد ٨، ج٣٢، ١٩٩٩م: ٢١.

(٢) ينظر: فعل القراءة – نظرية جماليَّة التجاوب (في الأدب) فولفغانغ آيزر، ترجمة: د. حميد لحمداني، د. الجلالي الكدية: ٢١.

(٣) معجم مصطلحات علم النفس، عربي، فرنسي، إنكليزي، إعداد: د. عبد المجيد سالمي، د. نور الدين خالد: ٨٢.

(٤) ينظر: بحوث في القراءة والتلقي، مجموعة من الباحثين، ترجمة: محمد خير البقاعي: ٣٥.

– إمَّا أنْ لا يخيّب النصُّ توقعاتنا، ويأتي كما نتوقع، وعندئذٍ لا يكون فيه أيُّ جدَّة أو إعلاميَّة.

– وإمَّا أنْ يكسر أُفق التوقع لدينا بشكل سلبيٍّ، فيكون أقلَّ ممَّا نتوقع، وهنا يكون النصُّ ليس ذا قيمة جماليَّة.

– وإمَّا أنْ يكسر أُفق التوقع لدينا بشكل إيجابي، فيكون أعلى ممَّا توقعنا وهذه هي خاصيَّة النصوص المبدعة.

إذ إنَّ أهميَّة النصِّ لا تنبع من كونه نصًّا إخباريًّا ينقل إلينا كمًّا من المعلومات، فهذا أمر تجاوزه الزمن، وإنَّما مَهمّة النصِّ أنْ يجعلنا نتفاعل معه، ونستلهم منه أشياء جديدة، تكسر توقعنا وتزيد من إعلاميَّة النصِّ المقروء، فأنت تزيد في إخبار بلاغ من البلاغات كلَّما كانت الوحدة المنتقاة لبعض الوحدات الأُخرى ضعيفة التوقع[١]، أي أنَّ ثمَّة علاقة عكسية، إنْ صح التعبير، بين التوقع من جهة وبين المفاجأة التي يحدثها ما هو غير متوقع من جهة أُخرى، فإذا زادت نسبة التوقع قلَّت نسبة المفاجأة ومن ثمَّ نسبة الانتباه[٢].

وتعتمد عمليَّة التواصل والتأثير ما بين النصِّ والمتلقي على مشاركة المتلقي، وحسن تلقيه للإشارات النصيَّة التي تقود خطاه، وتتحكم في نشاطه لتجنب الشطحات التأويليَّة، وعدم إنطاق النصِّ بما لم يقله، فـ(القراءة نشاط موجّه من طرف النص)[٣]، ويحدث هذا، ويتعمق التواصل، عندما يرصد القارئ في بنية النصِّ إجراءً أسلوبيًّا غير منتظر، أو مقابلات دلاليَّة غير متوقعة، أو مفاجآت سياقيَّة، أو عندما يعزز ظاهرة إمساك النصِّ عن معلومات، أو عند تحويل اتجاه النصِّ فجأة نحو مسار آخر ليكسر

(١) ينظر: مفاتيح الألسنيَّة، جورج مونان، ترجمة الطيب البكوش: ١٣٤-١٣٦.

(٢) ينظر: اللغة والإبداع مبادئ علم الأُسلوب العربي: د. شكري محمد عياد: ٨١.

(٣) فعل القراءة نظريَّة جماليَّة التجاوب (في الأدب) فولفغانغ آيزر: ترجمة: د. حميد لحمداني، د. الجلالي الكدية: ٩٤.

أُفق توقعه[١]، إذ يعدُّ لُأسلوب المفاجأة أو الدهشة القدرة على جذب المتلقي وتشويقه للوصول إلى معنى النص.

وبذاك يبقى النص ثابتاً، لكونه يمثل النقطة التي ينطلق منها القارئ لبناء توقعاته، التي تتعدد وتختلف وتتباين تبعاً لخبرته وممارسته فـ(حين يشرع المتلقي في قراءة عمل حديث الصدور، فإنّه يُنتظر منه أنْ يستجيب لأُفق انتظاره، أي أنْ ينسجم مع المعايير الجماليَّة، التي تكوّن تصوّره للأدب، لكنْ للعمل أيضاً أفقه الخاص، الذي قد يأتلف مع أُفق القارئ ممَّا ينتج عن ذلك حوار أو صراع بين الأُفقين)[٢].

وقد اصطلح على تسمية هذا الصراع أو التصادم الذي يحدث بين ما يفرزه النص، وما يتوقعه القارئ بمصطلح المسافة الجماليَّة (Aestnic Dictance)[٣].

فالمسافة الجماليَّة مصطلح أطلقه (ياوس) قاصداً به (التعارض بين ما يقدِّمه النص، وبين ما يتوقعه القارئ)[٤]، أو هي الفرق بين التوقعات وبين الشكل المعين لعمل جديد ويقوم الطابع الفني على أنَّه (تعديل للأُفق)[٥].

فعندما يستجيب (أُفق انتظار القارئ) لـ(أُفق النص) ويتفق معه، فإنَّ هذا يعني أنَّ هناك (ائتلافاً) و(تأثراً) سيحصل بينهما، ومن ثمَّ سيكون هناك تواصل ومشاركة وتفاعل بين الطرفين: (النص) و(القارئ)، بيد أنَّ هذا لا يعني بطبيعة الحال أنَّ (النص) ذو طبيعة فنيَّة عالية، بل على العكس من ذلك، فقد يكون (النص) دون المستوى الفني المأمول، وهذا التفاعل الذي حصل إنَّما كان بسبب استجابة النصِّ لـ(أُفق توقع القارئ) وتوافقه مع أُفق انتظاره، ولا علاقة لذلك بالمستوى الجمالي الذي يتمتع به (النص).

(١) ينظر: جماليات الأُسلوب والتلقي، د. موسى ربابعة: ١٢٩.

(٢) قراءة في القراءة، رشيد بنحدو، مجلة الفكر العربي المعاصر، مج١، ع٤٨، ١٩٨٨م: ٢١.

(٣) ينظر: جماليات التلقي- دراسة في نظريَّة التلقي عند هانز روبرت ياوس وفولفجانج آيزر، د. سامي إسماعيل: ٩٥.

(٤) جماليات الأُسلوب والتلقي: ٩٣.

(٥) ينظر: نظريَّة اللغة الأدبيَّة، خوسيه ايفانكوس، ترجمة: حامد أبو أحمد: ١٢١.

أمَّا النصُّ الذي يمتلك المقومات الفنيَّة العالية والقيمة الجماليَّة المرتفعة فإنَّه لا يهم أنْ يكون متوافقاً مع أُفق القارئ أو مختلفاً معه ومتصادماً مع طبيعة استجابته فهذا النوع من (النصوص) هو وحده القادر على أنْ يؤثر على القارئ وينفذ في نفسه ويقلب لديه الموازين، خصوصاً حين يكون (أُفق) ذلك النصِّ مختلفاً عن (أُفق انتظار) القارئ ومخيباً لـ(أُفق توقعه).

إذا أصبح مدى انزياح النصِّ عن معايير القارئ وتعديله لأُفق توقعه، مقياساً لتقدير القيمة الجماليَّة للأدب فكلَّما كان أثر كسر أُفق الانتظار قوياً، كان هذا النصُّ ذا قيمة فنيَّة عالية[١].

ولذلك ربط ريفارتير بين السياق الأُسلوبي والأبعاد غير المتوقعة داخل النص، فحسب قوله إنَّ السياق الأُسلوبي هو نموذج منكسر بعنصر غير متوقع[٢]، وتلتقي أُسلوبية ريفارتير مع الإعلاميَّة إذ (دعا الكاتب إلى تشفير نصِّه، ومن آرائه المهمَّة كذلك (عدم التوقع)، إذ إنَّ التوقع يسطّح القراءة ويطيح هيمنتها)[٣]؛ ولذلك فإنَّ (البنية الأُسلوبيَّة في نصٍّ معين تكمن في سلسلة من العناصر المتوقعة التي تدخل في علاقة تعارض مع العناصر غير المتوقعة)[٤]، علاوة على أنَّ (الخطاب الأدبي لا يوجد إلَّا بفعل الاتصال، وهذا لا يتحقق إلَّا بفعل الكاتب الذي ضمّن نصُّه بنية شكليَّة وضمَّنه إيَّاه مقاصده، أمَّا المتلقي فهو النصف الآخر الذي تستدعيه بنية الشكل ويقع في حبائل المقاصد الأدبيَّة التي يضمِّنها الكاتب)[٥].

(١) ينظر: جماليَّة التلقي من أجل تأويل جديد للنصِّ الأدبي، هانس روبرت ياوس، ترجمة رشيد بنحدو: ١٢٩.

(٢) ينظر: علم الأُسلوب مبادؤه وإجراءاته، د. صلاح فضل: ١٩٤-١٩٥.

(٣) نظريَّة التلقي والأُسلوبية منهاج التقابل الدلالي والصوتي، محمَّد رضا مبارك، عالم الفكر، ع١، ٢٠٠٤م: ٧٤.

(٤) المصدر نفسه: ٧٥.

(٥) ينظر: الشعريَّة اللسانيَّة والشعريَّة الأُسلوبيَّة، محمَّد القاسمي، مجلة فكر ونقد، ع٥٨، شبكة المعلومات، www.aleflam. net.

ومن ثمَّ، فإنَّ (قيمة كلِّ إجراء أُسلوبي يتحدد من خلال المفاجأة التي تحدثها في المتلقي، فكلَّما كانت غير متوقعة كان أثرها في نفس المتلقي عميقاً)[١].

فعملية العدول عن أَصل إلى صورة لغويَّة تركيبيَّة أُخرى تجعل النفس تنتقل عبر موضعين قد تربطهما علاقة، إذ إنَّ المسافة تقطع درجة الصفر، أي لحظة الفراغ التي ترفضها السُّنن الكونيَّة والنفسيَّة، فتتدفق عليها أَمواج من مشاعر الدهشة تتباين حسب طول المسافة بين المرحلتين، فكلَّما زادت المسافة زاد تدفق الدهشة وأثرها، حتى إذا ما طالت المسافة أكثر ممَّا يدرك العقل البشري، انقلب التأثير إلى فوضى، إذ يصبح كسر الإمكانات الهادف إلى نقل المعاني العاديَّة من أهم عناصر القول الجمالي[٢].

فكلَّما زاد العدول للنصوص زادت القيمة الجماليَّة لها، وعندئذٍ تكون (رحلة القارئ في الكتاب عمليَّة متواصلة)[٣].

فعندما يبدأ بالقراءة يمضي على نحو متصل في إدراكه، وفقاً لتوقعاته المستندة إلى خلفيته الثقافيَّة؛ لذلك فإنَّ ورود شيءٍ غير متوقع، ينتج عنه احتمال تعديل وجهة نظره ليتجه صوب العناصر غير المحدودة في النصِّ والتفاوض معها وتحقيقها[٤]، وهذا التغير لأُفق التوقعات يسميه آيزر (وجهة النظر الجوّالة)[٥]، وهي تتيح للقارئ أنْ يسافر عبر النصِّ كاشفاً بذلك كثرة المنظورات التي يترابط بعضها مع بعض، والتي تعدل كلَّما حدث انتقال من واحد منها إلى الآخر[٦].

وعبر هذا الانتقال وهذا الكشف تتم عمليَّة التفاعل بين النصِّ والمتلقي، وتبلغ

(١) المصدر نفسه: ٩.
(٢) ينظر: نظريَّة البنائيَّة في النقد الأدبي، د. صلاح فضل: ٣٧٠.
(٣) معايير تحليل الأُسلوب، ميخائيل ريفاتير، ترجمة: د. حميد الحمداني: ٥٦.
(٤) ينظر: النظريَّة الأدبيَّة المعاصرة، رامان سلدن، ترجمة: سعيد الغانمي: ١٦٤-١٦٥.
(٥) نظريَّة التلقي (مقدمة نقديَّة)، روبرت هولب، ترجمة: د. عز الدين إسماعيل: ٢١٥.
(٦) نظريَّة المصدر نفسه.

مستويات تتعدى القراءة السطحيَّة[١]، لتصبح احتراقاً وتجاوزاً لما هو متوقع ومنتظر، فالمتوقع أو المنتظر لا يثير شيئاً ذا بال في وعي القارئ، في حين تثير العناصر غير المتوقعة وعي القارئ وتستفزه.

وبذلك تصبح الإعلاميَّة كسراً لردود فعل القارئ إزاء المنبهات والمثيرات الكائنة في النصِّ والقارئ عندما يواجه تصادماً تتعارض مع موقفه ووعيه، وخبرته، وعندما تخلخل توقعاته، وافتراضاته، فإنَّه يخلق لديه إمكانيَّة التفاعل مع النصِّ، وهذا التفاعل كفيل بخلق الحسِّ الجمالي لديه، إذ بمقدور اللاتوقع، أو كسر أُفق التوقع الذي هو مظهر من مظاهرها أنْ يفعل علاقة المتلقي بالنصِّ، وينأى بها عن أنْ تكون علاقة أحاديَّة، من النصِّ إلى القارئ، إلى علاقة تبادليَّة تسير فيها عمليَّة القراءة في اتجاهين متبادلين من النصِّ إلى القارئ ومن القارئ إلى النصِّ[٢] أي قابلة للتأثر والتأثير.

تعتمد الإعلاميَّة على إثارة انتباه المتلقي فهي (مدى توقع عناصر النصِّ المقدَّمة أو عدم توقعها أو معرفتها أو عدم معرفتها وغموضها، ففي الواقع أنَّ كلَّ نصٍّ هو إخباري على نحوٍ ما، إذ إنَّه ينقل على الأقل معلومة صغرى، غير أنَّ مقدار (الإعلاميَّة) هو ما يوجه اهتمام السامع)[٣]، وقد جاء تعريف بحيري متناغمًا مع التعريفات السابقة ويلاحظ أنّه استخدم مصطلح الإخباريَّة، فذكر أنّها (تتعلق بتحديد جدَّة النصِّ، أي توقع المعلومات الواردة فيه أو عدم توقعها)[٤]، إذ نجد أنّ الإعلاميَّة ترتبط بمفهوم التوقع، فهناك دائماً النمط المألوف المتوقع لتركيب جملة ما، وهو يدخل ضمن نطاق التوقع الأدبي الذي يتوقع المتلقي أنَّ الجملة ستأتي على وفق ذلك الترتيب، أمَّا لو

(١) نظريَّة التلقي (مقدمة نقديَّة)، روبرت هولب، ترجمة: د. عز الدين إسماعيل: ٢١٥.
(٢) ينظر: جماليات الأُسلوب والتلقي: ٨٩-٩١.
(٣) مدخل إلى علم اللغة النصي فولفانجهاينه، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي: ٨٠.
(٤) علم لغة النص - المفاهيم والاتجاهات: ١٤٦.

حدثت انزياحات أو عدولات في النصِّ فإنَّ أُفق التوقع سيكسر عند المتلقي، وبذلك تتحقق هذه الجدَّة، فالمقدار المناسب من المعلوماتيَّة في النصِّ المعتمد على المقصد والتوقع والموقف يشكل بذلك عاملاً نصيًّا أساسيًّا، ويكون مقدار التواصل[١].

وهذه الجدَّة يحددها الكاتب أَوَّلاً في اختياراته الأُسلوبيَّة والموضوعيَّة (الشكل والمضمون) عند إنشائه النصَّ، ويحددها المتلقي بمعيار عدم التوقع، فهي تفترض ابتداءً أنَّ للكلام محتوى يجري إبلاغه للمتلقي بواسطة النصّ، ومن ثمَّ فهي لا تعالج نصًّا غير منسق أصلاً، ولكنَّها تعنى بالكيفيَّة التي يجري بها عرض هذا المحتوى، إنَّها تتعلق بحكم المتلقي على طريقة عرض المحتوى وبمدى اتسام عناصره النصيَّة بالطرافة والإغراب على حدِّ قول ابن سينا، إذ يرتبط ذلك بما سمَّاه ابن سينا (الإغراب)أو تحقق الطرافة ويزاد على ذلك إخلاف التوقع لدى المتلقي بما يرتفع به الكلام في سلّم النصيَّة[٢]، ويشير سعد مصلوح إلى طريقة توزيع المعلومات في النص قائلاً: (ترتبط الإعلاميَّة بمعدل ظهور النقاط التي تمثل نقلات أو منعطفات جديدة في تسلسل عرض المحتوى بالنسبة للمتلقي، إذ تتمايز النصوص باختلافها من حيث معدل البطء والسرعة في حدوث النقلات، ومن ثمَّ تتفاوت في مدى تحقق صفة النصيَّة لها؛ لذلك يرتبط مفهوم الإعلاميَّة بما يسمَّى الانتباه (Attention) أو التركيز (Focusing)، وينصرف إلى استجابات المتلقي أصالة)[٣]، إنَّ مفهوم القيمة الُأسلوبيَّة يفترض وجوده عدَّة أنماط للتعبير عن الفكرة الواحدة، وهذا ما يعرف بـ(المتغيرات الأُسلوبيَّة) التي يؤلف كلٌّ منها (شكلاً خاصًّا) للتعبير عن المفهوم الواحد[٤].

(١) ينظر: مدخل إلى علم اللغة النصي: ٩٤.

(٢) ينظر: في الدراسات العربية المعاصرة- دراسات ومثاقفات، سعد مصلوح: ٢٣٣-٢٣٤.

(٣) المصدر نفسه: ٢٣٤.

(٤) ينظر: الإبلاغيَّة فرع من الألسنية ينتمي إلى علم أساليب اللغة، د. عفيف دمشقية، مجلة الفكر العربي، ع٨-٩، ١٩٧٩م: ٢٠٦.

لَمَّا كان الخطاب في النصِّ القرآني يهدف إلى الإقناع والتأثير وكان المتلقي يشغل موقعاً وسطاً بين التأويل والبيان بوصفهما انعكاساً لعمليَّة التواصل ومثالاً للتواصل يمثل تجميعاً لكلِّ الإمكانات التي يمكن أن تتحقق ونحن نمر عبر النصوص، فإنَّه في لحظة ما قد ينتقل النصُّ من سياق معين إلى سياق آخر لتنبيه المتلقي ولفت نظره إلى أهميَّة السياق الذي انتقل إليه النصُّ بصورة مفاجئة، وكلَّما زاد السياق الجديد اختلافاً عن السياق الأَوَّل ارتفعت قيمة الإعلاميَّة لعدم حصول خفض تقدميٍّ أو رجعيٍّ للسياق الجديد، ومن استعمالات القرآن لهذا النوع من الإعلاميَّة قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

فقد تحدّث النصُّ عن أنواع المحرمات من الأطعمة وعدَّها ووصفها بأنَّها فسق، ثمَّ انتقل من سياق التحريم إلى قوله ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، فأيُّ يوم هو ذلك اليوم الذي اجتمعت فيه هذه الأحداث الأربعة المصيرية وهي (يأس الكفار)، و(إكمال الدين)، و(إتمام النعمة)، و(قبول الله الإسلام ديناً) ختاميًّا لكلِّ البشريَّة؟ وأنَّ اليوم المتكرر في الآية المتخلل مسألة التحريم سياقه واحد، ثمَّ عاد النصُّ لإكمال الآية بقوله ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ فيبدو الحديث عن يوم يأس الكفار ويوم

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

إكمال الدين كلاماً غير متناسب مع ما قبله، ومنقطعاً عمَّا بعده، يقول السيد الطباطبائي: (أمر الآية في حلولها محلِّها ثمَّ في دلالتها عجيب، فإنَّك إذا تأمّلت صدر الآية أعني قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ ﴾ إلى قوله ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ وأضفت إليه ذيلها أعني قوله ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وجدته كلاماً تامًّا غير متوقف في تمام معناه وإفادة المراد منه إلى شيءٍ من قوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴾ أصلاً، وألفيته آية كاملة مماثلة لما تقدَّم عليها في النزول من الآيات الواقعة في سور الأنعام والنحل والبقرة المبينة لمحرمات الطعام، ففي سورة البقرة ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1].

وهذا ما نريد إثارته في إعلاميَّة الخطاب القرآني، فمن خلال استعمال النصِّ لأُسلوب المغايرة السياقيَّة والتي ستؤدي حتماً إلى كسر توقع المتلقي وإدهاشه ومفاجأته، فهذا المقطع من الآية إنَّما جاء لتنبيه المتلقي على عظم هذا اليوم وأهميته، وأنَّ الحديث عن هذا اليوم في سياق الحديث عن المحرمات من الأطعمة واللحوم وقطع سلسلة التماسك النصي أمر مقصود تمثله قصديَّة إدهاش المتلقي وكسر توقعه؛ لأنَّ النصَّ تحدَّث عن الأطعمة وإذا به يفاجئ المتلقي بالانتقال السياقي إلى مسألة لا ترتبط بالأُولى لا شكلاً ولا مضموناً، ولو وضع هذا المقطع من الآية في مكان غير هذا المكان لأُوِّل تأويلاً مناسباً لسياق ترتيبه، بيد أنَّ وضعه في هذا المكان فيه إعلاميَّة بارعة ودقيقة تجبر المتلقي على البحث عن معنى ذلك اليوم الذي يئس فيه الكفار.

وقد ذهب المفسِّرون في بيان المراد من هذا اليوم في هذا المقطع من الآية:

أ- يئسوا من أن يحللوا هذه الخبائث بعد أن جعلها الله محرمة.

(١) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي: ٥/ ١٧٠.

ب- يئسوا من أن يغلبوكم على دينكم؛ لأنَّه تعالى وعد بإعلاء هذا الدين على كلِّ الأديان، وهو قوله ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فتحققت تلك النصرة وأَزال الخوف بالكليَّة وجعل الكفار مغلوبين بعد أنْ كانوا غالبين[1]، أي أنَّ الله تعالى حوَّل الخوف الذي كان يلحقهم من الكافرين اليوم إليهم ويئسوا من بطلان الإسلام وجاءكم ما كنتم توعدون به[2].

وقد ذهب الرازي إلى أنَّ قوله ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ﴾ أنَّه ليس يوماً بعينه حتى يقال إنَّهم ما يئسوا قبله بيوم أو يومين، وإنَّما هو كلام خارج على عادة أهل اللسان، معناه لا حاجة لكم الآن إلى مداهنة هؤلاء الكفار لأنَّكم صرتم بحيث لا يطمع أحد من أعدائكم في توهين أمركم[3].

ومن غير المعقول أنَّ الله يخبر المسلمين أنَّ المشركين قد يئسوا من دينهم بعد أنْ أنزل الله أحكام الحرام والحلال الخاصة باللحوم بل إنَّ ما يسبب يأسهم هو وجودٌ يرسخ الإسلام ويضمن استمراره بالنهج الذي أُنزل به.

وبذلك تكون الموجّهات النصيَّة في الآية الكريمة ذات سلطة على القارئ تدفعه نحو بناء علاقة تفاعليَّة للبحث عن رؤية النص وقصديّته متجاوزاً القراءة الخارجيَّة محاولاً القراءة الاستبطانيَّة للنصِّ.

والحقيقة (أنَّ هاتين الجملتين أعني قوله ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ وقوله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ متقاربتان مضموناً، مرتبطتان مفهوماً بلا ريب، لظهور ما بين يأس الكفار من دين المسلمين وبين إكمال دين المسلمين من الارتباط القريب، وقبول المضمونين لأنْ يمتزجا فيتركبا مضموناً واحداً مرتبط الأجزاء، متصل

(١) ينظر: التفسير الكبير: ٥/ ٤٦٦.
(٢) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: ٢/ ١٥٩.
(٣) ينظر: التفسير الكبير: ٥/ ٤٦٦.

الأطراف بعضها ببعض، مضافاً إلى ما بين الجملتين من الاتحاد في السياق)[1].

أمَّا قوله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فقد قيل فيه أقوال:

١- أي أكملت لكم فرائضي وحدودي وحلالي وحرامي بتنزيلي ما أَنزلت وبياني ما بينت لكم، فلا زيادة في ذلك ولا نقصان منه بالنسخ بعد هذا اليوم، وهو يوم عرفة عام حجة الوداع، عن ابن عباس والسدي واختاره الجبائي والبلخي قالوا: ولم ينزل بعد هذا على النبيِّ ﷺ شيء من الفرائض في تحليلٍ ولا تحريم، وإنَّه مضى بعد ذلك بإحدى وثمانين ليلة.

٢- إنَّ معناه اليوم أكملت لكم حجَّكم وأفردتكم بالبلد الحرام تحجونه من دون المشركين ولا يخالطكم مشرك.

٣- إنَّ معناه اليوم كفيتكم الأعداء وأظهرتكم عليهم، مثلما تقول الآن كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد بأنْ كفيتنا ما كنَّا نخافه، وقد روي عن الإمامين أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنَّه نزلت بعد أنْ نصب النبيُّ ﷺ عليًّا عليه السلام علماً للأنام يوم غدير خم منصرفه عن حجَّة الوداع وهي آخر فريضة أنزلها الله.

وعندما نزلت هذه الآية قال: «**الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الربِّ برسالتي وولاية عليِّ بن أبي طالب من بعدي**»، وقال: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله**»[2].

ولا يمكن القول إنَّ اليوم الذي أكمل فيه الدين وتمت فيه النعمة هو أيضاً ليس يوماً بعينه، بل هو اليوم نفسه الذي يئس فيه الذين كفروا ولا يكون ذلك بتحريم بعض الخبائث.

(١) الميزان: ٥/ ١٧١.

(٢) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢/ ١٥٩

وهذه الإعلاميَّة المفاجئة المدهشة للمتلقي التي كسرت توقعه من خلال الانتقال السياقي المفاجئ من سياق التحريم لبعض الخبائث إلى سياق الحديث عن يوم قامت عليه أهم المسائل بين الله والمسلمين فيما يخصُّ الإسلام.

وهذا يدعو المتلقي إلى البحث عن مخفّضٍ خارجيٍّ للإعلاميَّة؛ لأنَّ السياق مقطوع دلاليًّا عمَّا قبله وبعده، فعندما يواجه المتلقي بعناصر نصيَّة غير متوقعة فإنَّه يتعين عليه أنْ يتبنى إحدى عمليات خفضِ الإعلاميَّة الآتية:

أ- الخفض الأمامي: وذلك بأنْ يمضي المتلقي قدماً في قراءة النصِّ حتى يجد إحدى الوقائع النصيَّة التي تضيء العنصر النصيَّ الذي استوقفه من قبل.

ب- الخفض الخلفي: يعني ذلك أنْ يعود المتلقي أدراجه لعلَّه يجد فيما سبقت قراءته ما يفسِّر له ما غمض عليه.

ج- الخفض الخارجي: ويكون ذلك بالخروج من إطار النصِّ الماثل بين يدي المتلقي بالاعتماد على سياق الموقف أو التناص[1].

ويكون المخفِّض الخارجي متمثلاً بأسباب النزول التي حددت نزول هذه الحادثة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

وقد تعدد الآراء في تحديد هذا اليوم ومنها، أنَّه يوم نزول الآية، أو يوم بعثة الرسول محمَّدﷺ أو أنَّ المراد باليوم هو ما بعد فتح مكَّة، وقيل اليوم الذي نزلت فيه سورة براءة، وقيل هو يوم عرفة من حجَّة الوداع[2].

وقد نقل الطبري عن قتادة أنَّ الآية نزلت على رسول اللهﷺ يوم عرفة يوم جمعة حين نفى الله المشركين عن المسجد الحرام وأخلص للمسلمين حجهم[3].

(١) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ٢٥٥-٢٥٦.

(٢) ينظر: التفسير الكبير: ١١/ ١٠٧-١٠٨، وتفسير الطبري: ٦/ ٦٠-٦٣.

(٣) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري: ٩/ ٥١٦.

ويروى أنَّ يهوديًّا قال لعمر: لو علمنا معشر اليهود حين نزلت هذه الآية ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ لو يعلم ذلك اليوم اتخذنا ذلك اليوم عيداً فقال عمر، قد علمت اليوم الذي نزلت فيه والساعة، وأين رسول الله ﷺ حين نزلت: نزلت ليلة الجمعة، ونحن مع رسول الله ﷺ بعرفات[1].

فلو كانت هذه الآية نازلة بعرفات وفيها أكمل الدين وتمَّت النعمة يقتضي عدم نزول آية بعد ذلك، وقد وردت روايات كثيرة بنزول أحكام وفرائض بعد ذلك اليوم كما في آية الصيف (آية الكلالة) وآيات الربا[2] فيكون ذلك اليوم ليس هو يوم عرفة[3]، ولا يمكن أنْ يكون هذا اليوم هو يوم فتح مكَّة، فالآية تدلُّ على إكمال الدين وإتمام النعمة ولمَّا يكمل الدين بفتح مكَّة، وكان في السَّنة الثامنة من الهجرة، فكم من فريضة نزلت بعد ذلك وكم من حلال أو حرام شرع[4]، ولا هو المقصود به اليوم بعد نزول البراءة فلا سبيل إلى ذلك أيضاً؛ لأنَّ أحكاماً كثيرة قد نزلت بعد ذلك، ما في هذه السُّورة من الحرام والحلال.

بل يكون (بأنْ ينصب الله لهذا الدين من يقوم مقام النبيِّ في حفظه وتدبير أمره وإرشاد الأُمَّة القائمة به، فيعقب ذلك يأس الذين كفروا من دين المسلمين لمَّا شاهدوا خروج الدين عن مرحلة القيام بالحامل الشخصي إلى مرحلة القيام بالحامل النوعي، وليكون ذلك إكمالاً للدين بتحويله من صفة الحدوث إلى صفة البقاء، وإتماماً لهذه النعمة)[5].

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري: ٩/ ٥٢٤.
(٢) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي: ٥/ ١٧٤.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥/ ١٧٤.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٥/ ١٧٥.
(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٥/ ١٨٠.

وهذا يؤيد ما ورد من الروايات أنَّ الآية نزلت يوم غدير خم، وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة عشر من الهجرة في أمر ولاية عليٍّ عليه السلام[1]، إذ ذكر مجموعة من المفسِّرين أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله لم يعش أكثر من واحد وثمانين يوماً بعد نزول هذه الآية، وهذا أمر يثير الانتباه في حدِّ ذاته، إذ حين نرى أنَّ وفاة النبيِّ صلى الله عليه وآله كانت في اليوم الثامن والعشرين من شهر صفر نستنتج أنَّ نزول الآية كان بالضبط في يوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة الحرام وهو يوم غدير خم[2].

أي اليوم الذي نصب النبيُّ صلى الله عليه وآله عليًّا أمير المؤمنين عليه السلام بصورة رسميَّة وعلنيَّة خليفة له، حيث غشى الكفار في هذا اليوم سيل من اليأس، بعد أن كانوا يتوهمون بأنَّ دين الإسلام سينتهي بوفاة الرسول صلى الله عليه وآله وأنَّ الأوضاع ستعود إلى سابق عهدها في الجاهليَّة، لكنَّهم حين رأوا أنَّ النبيَّ أوصى بالخلافة بعده لرجل فريدٍ بين المسلمين في تقواه وعلمه وعدالته وقوته، وهو عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وشاهدوا النبيَّ وهو يأخذ البيعة لعليٍّ عليه السلام أحاط اليأس بهم من كلِّ جانب، وفقدوا الأمل فيما توقعوه من شرٍّ لمستقبل الإسلام وأدركوا رسوخ الإسلام وبقاءه[3].

ذكرت روايات كثيرة أنَّ الآية الكريمة نزلت في يوم غدير خم بعد تبليغ النبيِّ بولاية عليٍّ عليه السلام، يتضح من ذلك أنَّ الروايات والأخبار التي أكدت نزول الآية في واقعة غدير خم ليست أخباراً آحاداً ليتم تجاهلها أو تضعيف سندها، بل هي أخبار إنْ لم تكن في حكم المتواتر فهي على أقل تقدير من الأخبار المستفيضة التي تناقلتها المصادر الإسلاميَّة المشهورة[4].

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٥/ ١٨٠

(٢) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣/ ٣٥٦-٣٥٧.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣/ ٣٥٥.

(٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: ٣/ ٣٥٦-٣٥٧.

وإنَّ تقديم يأس الكفار على سبب يأسهم وهو إكمال الدين وإتمام النعمة كان لقصديَّة إعلاميَّة مهمَّة وهي تفخيم أمر اليوم، وتعظيم شأنه؛ لما فيه من خروج الدين عن مرحلة القيام بالقيّم الشخصي إلى مرحلة القيام بالقيّم النوعي، ومن صفة الظهور والحدوث إلى صفة البقاء والدوام.

والنصُّ الذي استطاع أنْ يفعل كسر توقع القارئ من خلال الآيات المختلفة السياق هو بلا شكٍّ نصٌّ استثنائيٌّ وخطابٌ متميزٌ على المستويات كافة، فالقارئ عندما يقوم بممارسة القراءة للنصوص المعتادة المكررة فإنَّها بلا شكٍّ ستراعي (أُفق انتظاره)؛ لأنَّه تعوَّد على قراءتها من خلال معايير وآليات تحليليَّة معروفة، بيد أنَّه إذا قام بهذه الممارسة لنصوص متميزة ومختلفة عن أُفق توقعه فإنَّها بطبيعة الحال ستصدمه بطرائق فنيَّة جديدة تتجاوز ما ألفه من مفاهيم القراءة التقليديَّة بسبب التباين الفني بين الطرائق الموجودة في النصوص التقليديَّة والنصوص الحديثة.

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ *يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[1].

إنَّ هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾ أيضاً من الآيات التي فيها كسر لتوقع المتلقي من خلال وضع الآية في نظم يختلف عنها مضموناً، أي أنَّ الآية غايرت سياق ما قبلها وما بعدها، وفي هذا الأُسلوب كسرٌ لتوقع المتلقي ومفاجأة له بما يحدثه من شدِّ المتابع والسيطرة عليه وشدِّ انتباهه من بين يديه قسراً عنه عن طريق الجدَّة في العرض ولفت انتباه المتلقي إلى قطع سلسلة المعلومات والإتيان بمعلومة جديدة

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٦٦-٦٧.

تجعله يبحث عن معناها ومقصدها.

إنَّ (الإمعان في التدبر في الآية نفسها وارتباط الجمل المنضودة فيها يزيد الإنسان عجباً على عجب، فلو كانت الآية متصلة بما قبلها وما بعدها في سياق واحد في أمر أهل الكتاب لكان محصلها أمر النبيِّ ﷺ أشدّ الأمر بتبليغ ما أَنزله الله سبحانه في أمر أهل الكتاب، وتعين بحسب السياق أنَّ المراد بما أُنزل إليه من ربِّه هو ما يأمره بتبليغه في قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] وسياق الآية يأباه، فإنَّ قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يدلُّ على أنَّ هذا الحكم المنزل المأمور بتبليغه أمر مهم فيه مخافة الخطر على نفس النبيِّ ﷺ أو على دين الله تعالى من حيث نجاح تبليغه، ولم يكن من شأن اليهود ولا النصارى في عهد النبيِّ ﷺ أنْ يتوجه إليه من ناحيتهم خطر يسوّغ له ﷺ أنْ يمسك عن التبليغ أو يؤخره إلى حين فيبلغ الأمر إلى حيث يحتاج إلى أنْ يعده الله بالعصمة منهم إنْ بلغ ما أُمر به فيهم حتى في أوائل هجرته ﷺ إلى المدينة وعند حدَّة اليهود وشدَّتهم حتى انتهى إلى وقائع خيبر وغيرها)[2].

وقد تعدد الآراء في ذكر سبب نزول هذه الآية حتى عدَّ الرازي عشرة أقوال في نزولها منها أنَّها نزلت في فضل عليِّ بن أبي طالب عليه السلام، وحين نزلت هذه الآية أخذ الرسول ﷺ بيده وقال: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه**»، فلقيه عمر بن الخطاب فقال: هنيئاً لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كلِّ مؤمن ومؤمنة، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمَّد بن علي[3].

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٦/ ٤٣.

(٣) ينظر: التفسير الكبير، الرازي: ٦/ ١١٣، وينظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥/ ٣٢، وينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن: ٤/ ١٩، وينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ٥/ ١٣١، وينظر: المنار، محمد رشيد رضا: ٦/ ٣٨٤، وينظر: فتح القدير: ٢/ ٣٣٦.

وعلى الرغم من تعدد الآراء في نزولها فإنَّ الرازي يختار رأياً ضعيفاً لا ينسجم مع سياق الآية بما تحمله من تحذير لم يسبق له مثيل، بل لا يمكن أنْ يستقيم هذا التفسير مع السياق الذي يضعها فيه فيقول (واعلم أنَّ هذه الروايات وإنْ كثرت إلَّا أنَّ الأَولى حمله على أنَّ الله تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم؛ وذلك لأنَّ ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير؛ لما كان كلاماً مع اليهود والنصارى، امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه تكون أجنبيَّة عمَّا قبلها وما بعدها)[1].

ونلاحظ هنا أنَّ الفخر الرازي يتجاهل تماماً أنَّه لم يكن قد بقي في تلك الفترة وجود لليهود في شبه جزيرة العرب، بعد حوادث بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع وخيبر وفدك ونجران، ولم يكن هناك وجود للنصارى، وحتى نصارى الحبشة كانوا قد دفعوا الجزية بعد يوم المباهلة.

ويوافق الرازي في الرأي محمَّد رشيد رضا فيرى أنَّ (الوصيَّة بالخلافة لا مناسبة لها في سياق محاجة أهل الكتاب، فهي ممَّا لا ترضاه بلاغة القرآن)[2]، ويؤكد هذا الرأي دروزة بقوله (وما سبق الآية وما لحقها يسوغان الجزم بأنَّها جزء من موضوع السياق المتصل بالنهي عن موالاة أهل الكتاب ولومهم؛ لأنَّهم لم يقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل على رسول الله ﷺ)[3].

والحقيقة التي نذهب إليها أنَّه من غير الممكن أنْ يكون وجود هذه الآية على وفق سياق آيات أُخرى يخرجها عن معناها الحقيقي خاصة وأنَّنا نعرف تماماً أنَّ جمع القرآن الكريم لم يكن على وفق ترتيب النزول على الإطلاق، وهنا يمكن ملاحظة قصديَّة النصِّ القرآني في وضع الآية مع آيات ليست من جنسها في المعنى لتحقيق غاية مقصودة

(١) التفسير الكبير: ٤/ ٤٠١.
(٢) المنار: ٦/ ٤٦٧.
(٣) التفسير الحديث: ١١/ ١٥١.

وهي المحافظة على معنى الآية، وذلك من خلال كسر توقع المتلقي بالسياق الجديد والالتفات الحاصل في الخطاب، ليحثه ذلك على البحث عن المعنى الخاص بهذا الآية، إذ إنَّ لهذه الآية نفساً خاصًّا يميزها عمّا قبلها وعمّا بعدها من آيات، إنَّها تتوجه إلى رسول اللهﷺ وحده وتبيّن له واجبه، فهي تبدأ بمخاطبة الرسول ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ وتأمره بكلِّ جلاء ووضوح أنْ ﴿ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ ثمَّ لكي يكون التوكيد أشدَّ وأقوى تحذره وتقول ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ ثمَّ تطمئن الآية الرسولﷺ وكأنَّ أمراً يقلقه وتطلب منه أنْ يهدِّئ من روعه وأن لا يخشى الناس فتقول له: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[1].

وفي ختام الآية إنذار وتهديد بمعاقبة الذين ينكرون هذه الرسالة ثمَّ يقول: أُسلوب هذه الآية ولحنها الخاص وتكرر توكيداتها وكذلك ابتداؤها بمخاطبة الرسول ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ التي لم ترد في القرآن الكريم سوى مرتين، وتهديده بأنَّ عدم تبليغ هذه الرسالة الخاصة إنَّما هو تقصير وهذا لم يرد إلَّا في هذه الآية وحدها، كلُّ ذلك يدلُّ على أنَّ الكلام يدور حول أمر مهمٍّ جداً بحيث إنَّ عدم تبليغه يعدُّ عدم تبليغ للرسالة كلِّها[2].

ولأنَّ الكفاءة الإعلاميَّة لهذه الآية مرتفعة فيحتاج المتلقي إلى البحث عن مخفضات خارجيَّة؛ لأنَّ المخفضات التقدميَّة والتراجعيَّة غير منسجمة مع مضمون الآية، إذ لا يمكن أن يكون الأمر بالتبليغ ممَّا يخصُّ التوحيد والشرك وتحطيم الأصنام، وهو ممَّا أنهاه الرسولﷺ قبل ذلك بسنوات، ولا يمكن أنْ يتعلق بالأحكام والقوانين الإسلاميَّة التي سبق نزولها ذلك الوقت، وليس ممَّا له صلة بشأن المنافقين؛ لأنَّهم طردوا من المجتمع الإسلامي بعد فتح مكَّة وامتداد نفوذ المسلمين وسيطرتهم على أرجاء الجزيرة العربيَّة وهي مخفضات سياقيَّة اختارها بعض المفسِّرين الذين رفضوا أنْ تكون هذه الآية خاصَّة

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٨٣.

(٢) المصدر نفسه.

بتبليغ أمر الولاية، وخير المخفضات الخارجيَّة هي أسباب النزول، إذ وردت نصوص كثيرة تؤكد أنَّ نزول هذه الآية قطعاً في أواخر حياة الرسول الأكرم(١) ﷺ، في حادثة الغدير عندما أمره بالتبليغ بولاية عليٍّ عليه السلام(٢).

وبذلك يكون غير المعتاد (غير المتوقع) هو المسؤول عن المفاجأة، التي تساعد المتلقي على التواصل مع النصِّ، والحرص على استبصار مكوناته؛ لأنَّ كسر التوقع إنَّما جاء نتيجة للطارئ المبتدع، وليس للعادي المألوف (المتوقع من النفس)؛ لأنَّ النفس (إذا أنست بالمعتاد فربما قلَّ تأثرها له، وغير المعتاد يفجؤها، بما لم يكن به له استئناس قط)(٣).

وقد تبيَّن من كلِّ ما تقدَّم أنَّ وضع الآيتين الخاصتين بحادثة الغدير في سياق آيات غريبة عنها وليست من جنسها يعدُّ أمراً مقصوداً يحقق عمليَّة التواصل مع المتلقي في أقصى حالته؛ لأنَّه سيزيد من كسر أُفق توقعه ويشعره بغرابة السياق حتى يبحث عن المعنى المنشود وللأمر غاية أُخرى، إذ لو وضعتَ هاتين الآيتين مع أيِّ آيات أُخرى لأُوِّلت تأويلاً يُخرج الآية عن مرادها كما حدث مع هاتين الآيتين عند بعض المفسِّرين.

(١) التفسير الأمثل: ٤/ ٨٣.

(٢) ينظر: الأمالي للجرجاني: ١/ ١٩١، وينظر: الشهرستاني في الملل والنحل: ١/ ١٦١، وينظر: مختصر تاريخ دمشق: ٥/ ٣٩٤، وينظر: غرائب القرآن للنيسابوري: ٢/ ٦١٦، وينظر: الدر المنثور: ٣/ ١١٧، وينظر: روح المعاني: ٦/ ١٩٣.

(٣) منهاج البلغاء: ٩٦.

المصادر والمراجع

١. الإبلاغية فرع من الألسنية ينتمي إلى علم أساليب اللغة د. عفيف دمشقية، مجلة الفكر العربي ع٨-٩، ١٩٧٩م، ٢٠٦.

٢. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.

٣. بحوث في القراءة والتلقي: مجموعة من الباحثين، ترجمة: محمد خير البقاعي، مركز الإنماء الحضاري، ط١، ١٩٩٨م.

٤. التفسير الكبير المسمى (مفاتيح الغيب): محمد بن عمر بن الحسن الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، المطبعة البهية - مصر.

٥. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ): تحقيق: محمود شاكر، علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط١(د.ت).

٦. جماليات الأسلوب والتلقي: أ.د. موسى ربابعة، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، أبرد- الأردن، ط١، ٢٠٠٠م.

٧. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ): تحقيق: محمود شاكر، علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط١(د.ت).

٨. جماليات التلقي دراسة في نظرية التلقي عند هانز روبرت ياوس وفولفجانج إيزر: د.سامي إسماعيل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.

٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الالوسي البغدادي (١٢٧٠هـ)دار الفكر؛ بيروت - لبنان، ١٩٨٧م.

١٠. الشعرية اللسانية والشعرية الأسلوبية، محمد القاسمي، مجلة فكر ونقد، ع٥٨، شبكة المعلومات، www.aleflam.net.

١١. ظاهرة التلقي في الأدب، محمد علي الكردي، مجلة علامات في النقد، المجلد ٨، ج٣٢، ١٩٩٩م،٢١.

١٢. علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته: د. صلاح فضل، النادي الثقافي، جده، ط١، ١٩٨٨م.

١٣. علم لغة النص- المفاهيم والاتجاهات: د. سعيد حسن بحيري ،الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

١٤. غرائب القرآن ورغائب الفرقان: الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده- مصر، ط١، ١٩٦٢م.

١٥. فتح البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي الحسيني البخاري القنوجي (١٣٧٠هـ) المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا- بيروت، ١٩٩٢م، (د.ط).

١٦. فعل القراءة - نظرية جمالية التجاوب (في الأدب) فولفغانغ آيزر: ترجمة د. حميد لحمداني، د. الجلالي الكدية، الفاس- المغرب، د.ت.

١٧. اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي: د. شكري محمد عياد، مكتبة زهراء الشرق، ط١، ١٩٩٨م.

١٨. مجمع البيان في تفسير القرآن: الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) تحـ: لجنة من العلماء والمحققين ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ١٩٩٥م.

١٩. مدخل إلى علم اللغة النصي: فولفانجهاينه، تر، فالح بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، ١٩٩٩م.

٢٠. مفاتيح الألسنية: جورج مونان، ترجمة الطيب البكوش، منشورات الجديد تونس، ١٩٨١م.

٢١. تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، د.ت.

٢٢. منهاج البلغاء وسراج الأدباء: أو الحسن حازم القرطاجي (٦٨٤هـ) تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية - تونس، ١٩٦٦م.

٢٣. تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، د.ت.

٢٤. النص والخطاب والإجراء: روبرت دي بوجراند، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب - القاهرة، ط٢، ٢٠٠٧م.

٢٥. النظرية الأدبية المعاصرة: رامان سلدن، ترجمة سعيد الغانمي، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٦م.
٢٦. نظرية البنائية في النقد الأدبي: د. صلاح فضل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.
٢٧. نظرية التلقي(مقدمة نقدية) روبرت هولب: ترجمة د. عز الدين إسماعيل النادي الأدبي الثقافي بجدة – السعودية، ط١، ١٩٩٤م.
٢٨. نظرية اللغة الأدبية: خوسيهايفانكوس، ترجمة حامد أبو أحمد، مكتبة غريب، مصر، د.ت.
٢٩. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ)، رتبه وضبطه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩٥م.